فجر الهدى والإيمان

عمير بن سعد

أطفال حول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم



إعداد الدكتور
محمد حسني مصطفى

مراجعة وتدقيق
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

عنوان الدار

سُورِيَة - حَلَبْ - خَلفَ الفُنْدُقِ السيّاحِي

شارع هدى الشِعْرَاوِيْ

هاتف / ٢١٣١٢٩ / ص.ب /٧٨/ فاكس ٢١٢٣٦١، ٠٢١،

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة عنه

هو عمير بن سعد بن عبيد الأوسي الأنصاري : صحابي من الولاة ، الزّهّاد ، شهد فتوح الشام ، واستعمله عمر رضي الله عنه على حمص . فأقام سنة ، ودعاه إلى المدينة فجاءها . فأراد أمير المؤمنين إعادته ، فأبى . ومات في أيامه . وقيل عاش إلى خلافة معاوية وكان عمر رضي الله عنه يقول : وددت أن لي رجالاً مثل عمير بن سعد أستعين بهم على أعمال المسلمين . وكان ينعته بأنه نسيج وحده .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما لعبد الرحمن بن عمير بن سعد : ما كان بالشام أفضل من أبيك .وكان عمير يتيماً في حجر الجلاس بن سُويد ، زوج أمه ، فوقع الجلاس في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنقل كلامه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنزل الله عز وجل في ذلك قرآناً ، وكان أن تاب الجلاس ، وكان يُثني على ما صنع عمير .

روى عن عمير رضي الله عنه ابنُه عبد الرحمن ، وراشد بن سعد ، وحبيب بن عبيد .

يتمه وكفالة الجلاس له

كان عمير بن سعد الأنصاري غضَّ العود عندما توفي أبوه عبيد الأوسي ، وقد تزوجت أمه من رجل أوسي آخر ، مبسوط الرزق ، يُدعى الجلاس بن سويد ، فكفل عميراً وغمره بحنانه ، وعامله معاملة الوالد لولده ، وأحبه عمير محبة الفتى أباه .

إسلامهما

ومنذ مجيء مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة كانت دعوة الإسلام تنتشر ، والإقبال عليه يزداد ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إليها غدت معقل الدعوة الإسلامية وعاصمة الدولة الإسلامية الناشئة .

وصار يتواتر إلى آذان الناس آياتُ الله تبارك وتعالى وهَدْي نبيه صلى الله عليه وسلم . وتناهى صداها إلى سمع الجلاس وربيبه ، فآمنا ، واستيقنا . ولم يكن عمير بن سعد رضي الله عنه يزيد على عشر سنين عندما أسلم أو كان بحدودها . وقد أحب صلاة الجماعة خلف النبي صلى الله عليه وسلم فواظب عليها .

الرُّوم يتجهزون لحرب المسلمين

ضاق الروم بالدَّعوة المظفرة ذرعاً ، فلم يروها تقتصر على المدينة المنورة ، ولا مكة وعلموا من سرعة تفشيها ، أنها واصلة إليهم لا محالة .

وكان حكام الدولة البزنطية الذين كانوا يغترون بأنهم هم ودولة الفرس أكبر دول العالم ، كانوا يسألون من يفد عليهم من مشركي العرب عن صفات الرسول صلى ا لله عليه وسلم وأحوال الدعوة ، فيتلقون منهم أجوبة لا تزيدهم عن مستقبلهم في الملك إلا قلقاً ، وهو قلق يتنامى يوماً بعد يوم إذا ما ترامى إلى أسماعهم بعض ما كان يردده الثقات من أحبارهم عن بعثة خاتم المرسلين ، وشمول دعوته للعالمين . من أجل ذلك تجهز الروم لغزو المسلمين .

إعلان النفير في دولة الإسلام

كان النبي صلى ا لله عليه وسلم إذا أراد أن يغزو كتم وِجْهَةَ غزوه لأسباب اقتضتْها أوضاع الحرب ، وهي أسباب كشفت الأيام أنها جديرة أن تْراعى ، وتُدارى ، وأبسط دليل وأقل دليل على ذلك أن قائدَ الجيش إذا غزا قوماً وفي جيشه طائفة منهم ، فإنه لا يأمن أن تراسل تلك الطائفةُ ذوي قرابتها لئلا يُؤخذوا على غِرة ، وبذلك تَحول رحمتُهم لأقاربهم إفشاءً لأسرار الجيش ، ومهلكة له .

بيد أن النبي صلى الله عليه وسلم استنفر المسلمين ، وحدد لهم أنه سوف يغزو تبوك البعيدة جداً عن المدينة المنورة ، والتي يقوم على حمايتها أضخمُ جيش في العالم آنذاك ، إنه جيشُ الدولة البيزنطية التي كانت تسيطر على معظم البلاد المشرفة على البحر الأبيض المتوسط . ولم يكن يضاهيها في العالم إلا قوةُ الفرس .

شقةٌ بعيدة ، وعدو جبار ، وليس بين القوتين تكافؤٌ في العدد ، ولا العتاد المادي ، والوقت هو حمارّة[1] القيظ ، والصيف في أعلى حرارته ، وأوج لهيبه .

وكل مسلم مكلف أن يشترك بنفسه وما يقدر عليه من مال في هذه المعركة .

وبدأ المؤمنون يتوافدون على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى صحبه الذين عينّهم لجمع التبرعات . وما كان أشدَّ فرحة الغلام الناشىء عمير بن سعد رضي الله عنه وهو يرى الأموال تتدفق على مراكز التبرع ، والنفوس المعبرة عن حبها للجهاد في سبيل الله تعالى ، وحماية دينه ، مهما كانت التضحيات .

---

[1] حمارّة القيظ : شدته .

صور من التبرعات

شهد الفتى الناشيء عمير بن سعيد رضي ا لله عنه عثمان بن عفان رضي ا لله عنه وهو يقدم من أجل غزوة تبوك ألف دينار ، ويجهز مئات الفوارس بما يحتاجون من أسلحة وزاد ورواحل . ورأى عبد الرحمن بن عوف رضي ا لله عنه يحمل على عاتقه مائتي أوقية من الذهب ، ويتبرع بها .

ورأى أبا بكر رضي ا لله عنه يتصدق بنصف ماله ، ويتصدق عمر رضي ا لله عنه بكل ماله.

ورأى من تأخذه الحميّة لدينه فيقبل على بعض أثاثه ليبيعه ويجهز نفسه . حتى النساء نزعن حليهن . وقدمنها في سبيل ا لله .

وحز في نفسه أن الأموال التي قدمت لم تكف لتجهيز كل المتطوعين للقتال . فصار النبي صلى ا لله عليه وسلم يعتذر في الأخير لمن لم يجد له عتادا حربيا وراحلة . فيعود هؤلاء وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقونه من أجل الإعداد للقتال . والاشتراك في النضال .

كلمة الجلاس

وفي غمرة الفرحة التي ملأت قلب الفتى المؤمن عمير بن سعد رضي ا لله عنه اشتاق أن يرى زوج أمه الجلاس وهو يجود مما آتاه ا لله ، كما جاد غيره . من التبرعات ، واشتاق أن يراه متلهفا على نصرة ا لله ورسوله ، لكن

عميراً لم يجد الجلاس من هؤلاء ، فأخذت تساوره بعضُ الظنون : إنه رأى أضداد المخلصين كما رأى المخلصين ، لقد رأى بالأمس منافقين يثبطون همم المسلمين على الغزو ، فتارة يعظمون من أمر الروم وجيشهم ، وأن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم سوف يورطهم في حرب لا قِبَلَ لهم بها ، وتارةً يهزؤون بمن ينفق اليسير ، وهو ما يقدر عليه ، أو يسفّهون الذي ينفق غدقاً ..

رأى عمير كلتا الفئتين ، فإلى أيهما ينتسب زوج أمه ؟

وما كان أشد أسفه إذ استمع إلى كلمات نبست بها شفتا الجلاس تهوي به – إن لم يتب منها – دهوراً لا تنقضي في نار الجحيم .

لقد سمعه يقول :" إن كان محمد صادقاً فيما يدعيه (من النبوة) فنحن شر من الحمير " أو قال :" لئن كان الرجل صادقاً لنحن شر من الحُمُر .

لقد كان عمير يذهل ، ويحار ، كيف يصنع ؟ أيغفي على كلمات النفاق فُيغضب ا لله ورسوله ، ويدع لتيار المنافقين مسلكاً مخبوءاً ، أم يعادي من لم يضنّ عليه بمال ولا عناية ، وكان له بمثابة الوالد طوال هذه السنين ؟

ولكنّ ا لله عز وجل قريب من عباده ، يهديهم إلى صرطه المستقيم ، وسننه المبين . وما هو إلا أن توجه قلب عمير إلى بارئه يستلهمه ماذا يصنع ، حتى ارتاح إلى هذا الحل .

قال لزوج أمه : وا لله يا جلاس ما كان على ظهر الأرض أحد بعد محمد بن عبد ا لله أحب إليَّ منك . فأنت أقرب الناس إليَّ ، وآثرهم عندي ، وأحسنهم يداً ، وأعزهم عليَّ أن يصيبه شيء يكرهه . ولقد قلتَ الآن مقالةً لو أذعتُها عنك لآذتك ، ولو صَمتُّ عليها ليهلكنّ ديني ، وإن حق الدين لأولى بالوفاء ، وإني مبلغٌ رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ما قلت .

وكان في وسع الجلاس أن يتصرف تصرفاً يُعفّي على غلطه ، ويمحو مغبة ورطته ، لا بالاعتذار إلىعمير ، وإنما بتوبته إلى ا لله تعالى ، وعندئذ يستره عمير ، ويستغفر له . لكنه لم يفعل .

فانطلق عمير إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ، وأخبره النبأ . ولم يعدّها النبي صلى ا لله عليه وسلم من قبيل الغيبة ، لأن الجلاس قد خرج حين قال ما قال من حصانة المسلم " .

إضافة إلى أن عميراً رضي ا لله عنه قد ترك له فرصة الإنابة إلى الهدى ، فلم يُنبْ ، ولم يكن في انفعال خرج به عن طوره .وكذلك فإن الرسول صلى ا لله عليه وسلم لم يمر كلام عمير دونما تبين ولا تثبت ، فاستدعى الجُلاس ، فأتاه فوجد عميراً في مجلسه ، وسأله النبي صلى ا لله عليه وسلم عما نمي إليه عنه ، فأنكر ، فصار موقف عمير بهذا الإنكار في حرج . وازداد الموقف حرجاً عندما أقسم الجلاس أنه لم يقل ذلك .

إن المؤمنين لينظرون بنور ا لله ، فإذا ما قُذفت أشعته في قلب من القلوب تلألأ بالمعرفة ، وانغمر بالحق . ولكن ا لله عز وجل الحكيم الرحيم يحب الستر ، فلا يكشف للآخرين أسرار خلقه ، ليذر لهم سبلاً إلى التوبة ،

وإنه سبحانه ليغار على عباده ، ويحبهم ، وهو الذي ابتلاهم بالشر والخير فتنة ، وهو سبحانه العليم بمكائد إبليس وحزبه .

فليست كلّ خاطرة ، أو كلمة ، أو عمل ، من المسلم ، بمعلومة مكشوفة عند الآخرين ، ولو كانوا صحابةً ، إنما يكشفها الله تعالى إن شاء لنبيه ، وملائكته الموكلين بصاحب هذه الخاطرة أو الكلمة أو العمل ، وإن شاءت حكمته أطلع عليها من أراد من أهل المكاشفة من خاصة عباده ، وهؤلاء يعاملون صاحبها ، ويعالجون موقفه بحكمة وهداية ورحمة .

القرآن ينصر عميراً

حارت قلوب بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ترى هل نقم الغلام على زوج أمه شيئا فأراد أن يشي به وينتقم منه ، ناسيا ما كان يحوطه به من عناية وإنفاق وحدب !

أو أن الجلاس قد زلّ ، فعلت قصبة الدين على كل معبر سواها لدى ربيبه ؟

لولم تكن أيام الوحي ، لكانت فتنة ، قد يصل فيها الناس إلى الحقيقة ، وقد يظلم فيها من يظلم ، أما ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين القوم فلا يدعها الله عز وجل إلا كالشمس وضوحا ، والمحجّة البيضاء .

لقد نزل الذكر الحكيم ، وزال الحرج عن الغلام ، وزال من القلوب الظنون ، وتبلج الحق ، وتلا النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى :

﴿ يحلفون با لله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم ، وهمّوا بما لم ينالوا ، وما نقَموا إلا أن أغناهم ا لله ورسولُه من فضله ، فإن يتوبوا يكُ خيراً لهم ، وإن يتولَّوْا يعذبْهم ا لله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ، وما لهم في الأرض من وليّ ولا نصير ﴾[1] .

بذلك استجيب لدعاء الغلام لما ارتاب بعض القوم به ، فقال : (اللهم أنزل على نبيك بيان ما تكلمت به) وانحسرت أحابيل الشيطان من حول الجلاس ، وانطلق لسانه يردد الحقيقة ، ويعترف بخطئه ، ويعلن أنه لن يتولى ، بل سيتوب .

وأراد النبي صلى ا لله عليه وسلم أن يبين أن أمثال " مخابرة " عمير ماهي بمحظورة ، ولا ممنوعة ، فأمسك برفق أُذن عمير ، وقال له في حُنوّ : " وفتْ أذنك يا غلام ما سمعت ، وصدّقك ربُّك " .

الجلاس يحسن إسلامه

اعتبر الجلاس رضي ا لله عنه بما حدث ، فتاب توبةً نصوحاً ، وأوى إلى فيء الإنابة ، وصار يقول في حق ربيبه : جزاه ا لله عني خيراً ، فقد أنقذني من الكفر ، وأعتق رقبتي من النار .

وأراد أن يتلافى بعد ذلك سوء ما دلّاه إبليس فيه ، فصار يكثر من أعمال البر ، ومن التعبد والقربى إلى ا لله تعالى ، وفي غزوة تبوك نفسها كلّفه

[1] سورة التوبة ٧٤.

النبي صلى الله عليه وسلم بأعمال جهادية مع خالد رضي الله عنه ، ففتح مع سيف الله أحدَ الحصون المنيعة ، في تخوم المسلمين مع الروم .

نقل ابن حجر في الإصابة (الترجمة ١١٧٦) :

" فتاب الجلاس ، وحسنت توبته ، ولم ينزع عن خير كان يصنعه إلى عمير ، فكان ذلك مما عرفت به توبته " .

والي حمص

شبَّ عمير رضي الله عنه ، فصار يسهم في أعمال الجهاد ، والفتوح الإسلامية ، وبينما هو كذلك ، بين جهاد وعبادة ، وأذكار ، شَغَر منصب والي حمص " .

وكان فريق من أهل حمص قد تعنت في الشكاوي إلى عمر رضي الله عنه ، حول ولاته ، كلما جاءهم والٍ ألصقوا أو ضخّموا به بعض العيوب ، ورفعوها إلى أمير المؤمنين[١] ، مع أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كان دائماً يحرص على اختيار الرجل المناسب من أعوانه فيجعله في المكان المناسب له ، وتدبَّر الأمر في هذه المرة فإذا به يختار عمير بن سعيد رضي الله عنه ، فجعله على حمص ، فساس الناس سياسة راشدة ، واتخذ له أعوان صدقٍ فكفوه إدارة شؤون الناس المالية والاجتماعية والعلمية والتوجيهية ، أو كفوه قسطا كبيراً منها ، وبذلك وازن بين عمله والياً ، وبين حبه للعبادة والذكر ، لينال من كلا الأمرين الأجر .

---

[١] وليس هذا الأمر عاماً فيهم ، بل المتفشي فيهم الصلاح والطيب والوداعة .

وأخرج ابن سعد في طبقاته (٣٧٥/٤) عن سعيد بن سويد ، عن عمير بن سعد رضي ا لله عنه أنه كان يقول على المنبر – وهو أمير على حمص ، وهومن أصحاب النبي صلى ا لله عليه وسلم :" ألا إن الإسلام حائط منيع ، وباب وثيق ، فحائط الإسلام العدل ، وبابه الحق ، فإذا نُقض الحائط ، وحُطّم الباب استُفتح الإسلام ، فلا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان ، وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ، ولا ضرباً بالسوط . ولكن قضاء بالحق ، وأخذاً بالعدل " .

والخطبة في غاية البلاغة ، فقد شبه الإسلام بالحصن المسور الذي يصعب الدخول عليه ، وتهديمه ، لأن بابه متين ، ويعود على طريقة " اللف والنشر مع الترتيب " فيبين أن أسوار الإسلام العدل ، فهو محفوف به ، وأما بابه فالحق ، وقد أحسن عمير رضي ا لله عنه إذ أكّد على هذين المبدأين ، إذ بالعدل والحق يصلح المجتمع ، وتستقيم العلاقة بين أفراده ، وبينهم وبين حاكمهم . ولن يقوم عدل ولا حق إلا بمساندة حاكم قوي لهما ، وتمثله لمواقعهما ، ومساندته إنما تكون بالعمل المستقيم العادل الحق ، فقط . ومن الخطأ أن يفهم أحد الحكام أن سياسته لشعبه بالحديد والنار ، والسياط الملهبة ، تنجح .

ومكث على ولاية حمص حولاً ، فلا هو رفع إلى عمر رضي ا لله عنه قضية عجز هو عن حلها ، ولا فاض عنه مال بعثه إلى المدينة ، فما كان يجمع من زكاة كان يصرف على أهل حمص ، فيسد عوزهم ، وأرسل إليه أمير المؤمنين بعد تمام الحول أن ائتِ ، وأراد أن يطلع منه على أحوال الرعية

هنـاك . فأتـاه " محـافظ حمـص " ، ومـن أراد أن يقيـس وضعـه علـى مـيزان الناجين ، ووقف هاهنا متأملاً أفاد عبرة كبيرة ، وموعظة قيمة .

إن كثيراً من الأتقياء حازوا أموالاً من مكاسب طيبة ، وكانت أمـوالاً طائلة ، وإن كثيراً من حكام الإسلام شادوا القصـور ليظهـر ملـك المسـلمين بالمظهر اللائق . ولم يأثم هؤلاء ولا أولئك . ولكن ماذا عسى أن يقـول المـرء وهو يسرد خبر عمير رضي الله عنه وهو يلبي دعوة سيده أمير المؤمنين ماشيا على قدميه من حمص إلى المدينة المنورة ؟

وكأنه كان يقول في نفسـه لعـل الله تعـالى ألا يؤاخذني إن انصرفـت عـن ولايـة حمـص ، وأراد أن يسـتأنف إسـهامه في أعمـال الفتـوح نهـاراً ، والفراغ للعبادة ليلاً ، ليكسب الأجر من الأمريـن كذلـك ، وإذاً فقـد جهـز نفسه للانصراف عن الولاية لأن مسؤولية الحاكم عند الله تعالى كبيرة جداً ، لأن عليه تبعة كل من يلوذون به ، وعاد عمير بمتاعه وأثاثه معه .

ولكن ماذا كان متاعه ، وماذا كان أثاثه ؟

جراب للزاد ، وقصعة للطعام ، وليغسل عليها رأسـه وثيابـه ، وقربـة لوضوئه وشرابه .فقط !

عاد إلى المدينة ، وبدت عليه وعثاء السـفر ، ونحـل جسـمه ، لكنـه لم يعجز عن حمل متاعه وأثاثه ، ولم ينصب بجرابه وقصعته وقربته .

وكيف ينصب وكيف يتعب ، وهو لم يتخذ لنفسـه مفـارشَ ولا أسـرةً ولا عرشاً ولا تاجـاً ، ولا أثاثـاً يعـدل أثـاث أقـل بيـت مـن بيـوت المسـلمين اليوم .

أتراه حمل على ظهره ما يطيق في هذا الطريق ، كما حمّل نفسه من أجل الآخرة بما يقدر أيضا على حمله ، ولا يعوقه لدى عبور الصراط ، واجتياز مواقفه ؟

أثاث عمير عجب عجاب في أيامنا . لماذا لم يكن عنده مؤونة مدخرة ، من برغل وأرز وزيت وعدس ... ليأكل منها أيام الشتاء ، مع أن هذا الادخار مباح ؟

ألأن عميراً ، وعمر بن الخطاب أميره رضي الله عنهما ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم الذي علمهما وعلم أمثالهما الثقة بالله ، وأقر في أنفسهم إيمانا بالله بحيث يتعاملون مع الله عز وجل ، وكأنهم يرون الله ، ويثقون بالله الذي يراهم ويسمعهم ويتولّى أمرهم الثقة التامة ؟

فما عند الله مخبوء لعباده ، مَسُوق إليهم ، وهو لا ينفذ ، وهم يعملون ، ويسعون لكسب أرزاقهم ، وعطاء الله غامِر لهم مرة بسبب ، ومرة بلا سبب ، تارة من حيث يحتسبون ، وأخرى من حيث لا يحتسبون .

أفيثقون بما ينفد ، ولا يثقون بما لا ينفد ؟

كذلك صنع عمير وأمثاله من الذين رباهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشأهم على عينه ، من هذا الطراز الفريد من الأولياء الصالحين .

وسأله عمر – ورأى مظهره وحمله – : وما معك من الدنيا ؟

فأراه ما معه : الجراب والقربة والقصعة

فسأله : وأين ما أتيت به لبيت المال ؟

فقال : لم آت بشيء .

فقال : ولم ؟

قال : لّما أتيت حمص جمعت صلحاء أهلها ، ووليتهم جباية فيئهم وأموالهم ، حتى إذا جمعوها وضعتها في مواضعها ، ولو كان بقي منها شيء لأتيتك به.

وسأله أمير المؤمنين:أما كان لك أحد أن يتبرع لك بدابة تركبها ؟

قال : ما فعلوا,وما سألتهم ذلك.

وأراد عمر رضي ا لله عنه أن يجدد لوالي حمص عهداً ، ليعود إليها ، فاستعفاه عمير رضي ا لله عنه .

استعفى عمير ، واعتذر عن قبول منصب " محافظ حمص " . ثم مات عمير رضي ا لله عنه سنة ٤٥هـ.فقال فيه عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه :

وددت أن لي رجالاً مثل عمير بن سعد أستعين بهم في أعمال المسلمين .

ونعته مرةً أخرى بأنه " نسيج وحده " ومن الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .